تمهيد

التفسير بالقرآن وأهميته

عندما يعني الباحث بدراسة موضوع جزئي يتفرع من موضوع كلي ، يشكل بحثه أساساً من أسس ذلك الموضوع العام ، ويعين من ثم على الدراسة المتكاملة له ، اذا سلك باحث او باحثون آخرون نفس الاسلوب لاستكمال أجزاء ذلك الموضوع الكلي الشامل . فللدراسات الجزئية أهميتها في شتى أنواع الدراسات وخاصة اذا تنوولت بتتبع وكفاية وعلمية . وقد عُني علماؤنا الأوائل بها عناية واضحة أدت للدراسات الكلية فائدة فائقة . وبمثل هذا المنهج اخذ المعاصرون في دراساتهم المتنوعة .

يقول م. ف جويار : « وبقدر ما تكون الدراسات الجزئية المحققة على مر الزمن عديدة ، يتيسر للدراسة الشاملة الحظ في أن تكون مضبوطة »(١) . والبحث في الموضوع الذي نعرض له بالدراسة ، من هذه الموضوعات الجزئية المهمة في تفسير القرآن ، اذ هو يشكل ركناً متيناً ، في البناء العام لطرق التفسير و أساليبه ويعود ذلك لسببين رئيسين :

احدهما :

أن هذا الاسلوب يجعل بعض آي القرآن شاهداً للبعض الآخر ، والشاهد اذا كان كلام الله فهو خير شاهد ودونه كل الشواهد . وهذا لا مشاحة فيه بين العلماء والباحثين قديماً وحديثاً ، سواء تعلق الاستشهاد القرآني بالدراسات الاسلامية أم اللغوية أم غيرهما .

وثانيهما :

أن تفسير القرآن بالقرآن يدل على جهد ذاتي ؛ لأن المفسر حين يرد آية الى آية او لفظة على أخرى ليفسرها بها ، فانما يقوم بعملية ذهنية ذاتية واضحة

(١) هلال : د . محمد غنيمي : الأدب المقارن ص ١١٥ — ١١٦ .

تتطلب قبل كل شيء ، تتبعاً لنصوص القرآن في الذهن ، كما تتطلب مهارة وفهما .

فعملية التفسير بالقرآن إذاً عملية مقارنة، والممارس لها من المفسرين يقوم بدور المقارن، حتى يفضي به ذلك إلى تحديد المعنى.

ومع أن طرق التفسير وأساليبه قد تعددت بتعدد العصور، وتباينت بتباين المفسرين وأذواقهم وبيئاتهم واتجاهاتهم العقيدية والمذهبية، الا أن التفسير بالقرآن ظل دائماً أمثل هذه الطرق والاساليب وأفضلها. وقد نص على ذلك المهتمون بالدراسات القرآنية من قدامى العلماء، فقال ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في الفصل الذي سماه : « في أحسن طرق التفسير » من مقدمته في اصول التفسير (١) : « فان قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ الجواب ان اصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فانه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فانه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر » .

وبالمثل نجد الزركشي (٢) حين عرض لطرق التفسير بالبيان، قد جعل تفسير القرآن بالقرآن في مقدمتها، وحكى عن أهل العلم أنه أفضلها.

ان هذا المنهج الأمثل ترسمته المدرسة القرآنية في التفسير، تلك المدرسة التي تعني قبل كل شيء بقرآنية تفسير الآى، أو بعبارة أوضح : بالالتزام بالنص القرآني وسيلة لكشف معاني الآى. فهي تستنطق القرآن في تبيين ما استغلق منه، وازالة إشكال ما اشكل أو تخصيص عمومه، أو التوفيق بين الآى التي قد يوهم ظاهرها بالتناقص والاختلاف، مع انها ليست كذلك، وما إلى ذلك من فوائد جمة وعملية في التفسير. فضلا على أن هذا الاسلوب وسيلة ناجحة لاستبعاد وجوه التأويل التي لا تنسجم مع النص القرآني وروحه ومقاصده، لانها تستقي أحياناً من مصادر لا تنهض أن تكون وسائل للتفسير

---

(١) ص ٩٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/١٧٥ - ١٧٦ .

على نحو ما نرى في بناء المعنى على الالفاظ النادرة والتعابير الشاردة في اللغة مما لا يصح أن يحمل عليه القرآن، ولا يليق ان يفسر به. أو نحو التفسير المبني على الرأي الذي لا يسنده دليل يعتد به او حجة يصار اليها. فكل هذه الاساليب التفسيرية قد يعتورها الوهن والبعد عن أن تصح تفسيراً للقرآن. فيكون أسلوب التفسير بالقرآن المنهج الأمثل حقاً، اذا تناوله المفسر بموضوعية ودقة وحسن استعمال.

فضلا على ان هذا الاسلوب يمنع كثيراً من الروايات الموضوعة والغريبة عن الثقافة الاسلامية الاصيلة، وعلى رأس هذه الروايات ما يعرف في علم التفسير بـ « الاسرائيليات » (١) ،التي ابتُلي بها هذا العلم، حتى كادت أن تلبس على الناس وجوهه ، وتكدّر عليهم الرائق الذي لا يشوبه كدر منه.

وهذا المسوّغ القوي يفتح الباب على مصراعيه للبحث عن أدلة وشواهد وقرائن أخر من داخل القرآن، لتفسير ما لم يعرض له القدامى والمحدثون بالبيان، ويقف محفزاً هاماً لاستعادة روح المدرسة القرآنية من جديد في العصر الحديث، بعد ان وطأت لها مدرسة محمد عبدة، ثم عنى بها الخولي ومن نهج نهجه في التفسير، جاعلة النص القرآني قدوتها في استجلاء معانيه.

وقد تناولت بالدراسة في هذا البحث نشأة اسلوب التفسير بالقرآن وتطوره حتى عصر الجلالين، وهما جلال الدين المحلي (٨٦٤ هـ) وجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) ،تحدوني إلى ذلك الرغبة في بيان هذا اللون من التفسير وتطوره، على امل أن استأنف الدراسة في بحث آخر يتناول هذا الاسلوب في العصر الحديث من عصر النهضة، حتى يومنا هذا، ثم اختم البحثين جميعاً بثالث يتناول القواعد التي يبنى عليها والصور التي يرد فيها الاسلوب نفسه.

(١) يراد بالاسرائيليات في اصطلاح علم التفسير : الروايات التي رويت عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، مثل كعب الاحبار وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه وعبد الملك بن جريج. وكثير من هذه الروايات لا يتفق مع العقيدة الاسلامية والحقائق العلمية.

ومما حملني على اختيار هذه الفترة بالذات والوقوف عند عصر الجلالين أني اردت ان ادرس هذا الاسلوب في مصادره القديمة، واننا لا نكاد نضفر بعد الجلالين – حتى عصر النهضة – بتفسير يتميز مما سبقه بجديد.

هذا إلى أن لشهرته وطبيعة منهجه وقيمته العملية لدى القدامى والمحدثين أثرها في جعله ضمن فترة هذا البحث.

ولا بد لي قبل الولوج في الموضوع من ان أبيّن طرفاً من القواعد العامة والصور المتنوعة التي يقوم عليها هذا الاسلوب جاعلا تفصيل ذلك في البحث الثالث الذي أشرت اليه آنفاً؛ اذ لا يتسع هذا البحث لتفصيله؛ لانه مكرس لبيان النشأة والتطور حسب.

ويقوم اسلوب التفسير بالقرآن على قواعد وصور متنوعة ومتعددة أهمها أن يكون النص المفسّر تفصيلا بعد اجمال، او بيانا بعد ابهام، او تخصيصاً بعد عموم، أو تقييداً بعد اطلاق، او تقابلا او تناظراً بين لفظتين او عبارتين او تعييناً لدلالة لفظ مشترك او متضاد، وما إلى ذلك.

وللآيات التي تفسر بها آيات أخر صور وأنماط أسلوبية متعددة. فقد تكون متصلة بها، إما متقدمة عليها او متأخرة عنها، وقد تكون منفصلة عنها بفاصل من الآيات، وهي في السورة نفسها، وهذه هي « دلالة السياق » أو تكون في سورة أخرى.

وتفيد « دلالة السياق » في الكشف عن معاني الآى، وقد ذكر الزركشي «انها اعظم القرائن الدالة على المراد من الكلام، وأنها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة » (١) .

(١) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٩٩/١ .

القسم الاول

نشأته

(١)

في عهد النبوة

نشأ التفسير بالقرآن في عصر صدر الاسلام، أو على وجه التحديد : في عصر النبوة؛ اذ كان النبي محمد (ص) أول من افتتح هذا المنهج القيم في التفسير. فكان ذلك الافتتاح ايذاناً بأن يسلكه أصحابه ومن تبعهم من اهل الملة في كل حين. وهذا ما حدث بالفعل، اذ رأينا تلك المبادرة الاولى تنمو على أيدي الصحابة والتابعين وأتباعهم من المفسرين إلى عصرنا هذا.

وكان الذي أدى إلى ظهور هذه المبادرة من لدن المعلم الاول، قلقاً حاك في صدور الاصحاب، حين غم عليهم تفسير لفظة « ظُلْم » الواردة في الاية ٨٢ من سورة الانعام . فقد ظنوا ان المراد بها الظلم بمفهومه المتبادر، وهو مجاوزة الحق والتعدي على الآخرين أو على النفس (١) ،وذلك وارد في كثير من الآى (٢) . فأوضح لهم الرسول المعنى المراد من الظلم في الاية، مستدلا بآية أخرى. فكان في ذلك التفسير ما أزال القلق الذي ساورهم وألم بهم، فوق انه تطبيق عملي للتفسير بالقرآن، انتهجه أصحابه ومن تبعهم من المفسرين بعد ذلك.

روى البخاري (٣) عن عمر بن حفص بن غياث بسنده عن الصحابي العالم عبد الله بن مسعود انه قال : « لما نزلت : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » قلنا : يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه ؟ ،قال ليس كما تقولون، « لم يلبسوا ايمانهم بظلم » : بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه :

---

(١) الراغب : مفردات القرآن ص ٣٢٦ – ٣٢٧ ، مادة (ظلم) .

(٢) كقوله تعالى : «انما السبيل على الذين يظلمون الناس» الشورى: ٤٢ ،وقوله: «فمنهم ظالم لنفسه» فاطر: ٣٢ ، وقوله : «رب إني ظلمت نفسي»النمل : ٤ ، القصص : ١٦ .

(٣) الصحيح ٢٠٥/٧ شرح ابن حجر ، كتاب أحاديث الانبياء .

«يا بنيّ لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم» ،ففسر (ص) القرآن بالقرآن.

واذا كانت هذه الرواية قد حصرت الظلم الذي فهمه الصحابة وحددته بظلم النفس كما ورد من بعد في رواية مسلم(١) ،فان رواية أخرى للبخاري(٢) عن ابن مسعود أيضا تدل على أنهم فهموا الظلم فهما مطلقاً غير محصور بدلالة معينة من دلالاته الثلاث وان لم يفسروه ، اذ ورد في تلك الرواية انهم قالوا : « وأينا لم يظلم » ؟ ، بدلا من : « أينا لم يظلم نفسه » في الرواية الاخرى التي أوردناها آنفاً ، غير أن هذه الرواية لم تصرح بأن الرسول (ص) فسرّ الظلم بالشرك استناداً إلى آية لقمان : « ان الشرك لظلم عظيم » ،وانما اشارت إلى ان هذه الآية نزلت بعد سؤالهم الذي أوردنا، وهو الذي استنبط منه بعض العلماء جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة (٣) . على أن رواية مسلم — وهي كذلك عن ابن مسعود — تذكر عبارة لها دلالة خاصة في هذا الموضوع ، وهي : «شق ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا :« أينا لايظلم نفسه » فكان في جواب النبي (ص) :« ليس هو كما تظنون» ، واحالتهم على آية لقمان ، رفع لتلك المشقة التي ظنوا انهم واقعون فيها .

ومهما يكن من أمر اختلاف عدد من الفاظ الحديث ما بين رواية واخرى أو مصدر أو آخر ، فان الخبر دال بوضوح على ان النبي (ص) مارس عملياً هذا الاسلوب من التفسير ، الذي يعتمد القرآن قرينة لتفسير القرآن ، وذلك حين أحال على آية لقمان .

وبهذا فهم الصحابة أن المراد من قوله تعالى:«ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » : أي بشرك ، فليس هو إذاً ظلم النفس او ظلم الغير .

---

(١) ١/٨٠ باب صدق الايمان واخلاصه .

(٢) نفسه ١/٩٥ — ٩٦ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري ١/٩٦ .

(٢)

في عهد الصحابة

لانكاد نمضي الى العهد الراشدي حتى تلقانا نصوص لنفر من كبار الصحابة ذات سمة نظرية وأخرى تطبيقية . وفي مقدمة هؤلاء الصحابة الامام علي ابن ابي طالب الذي يعد صدر المفسرين من الصحابة ، ويتلوه عبدالله بن عباس (١) .

فنجد للامام علي نصاً في مجموعة خطبه ووصاياه ، يوجه فيها سامعيه الى هذا الاسلوب التفسيري ويلفتهم اليه ، إذ يقول لهم :

«كتاب الله تبصرون به ، وتنطقون به ، وتسمعون به ، وينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ، ولا يخالف في الله ، ولا يختلف بصاحبه عن الله » (٢) .

فقوله : « ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض»، يشير الى هذا المنهج الافضل في تفسير القرآن وينبه عليه . ذلك أن الآية المفسِّرة ناطقة بلسان الاية المفسَّرة وشاهدة عليها ، دالة على معناها .

ومن الغريب أن ابن ابي الحديد ــ أحد كبار شراح النهج ــ لم يقف في شرحه عند هذه العبارة ليجلي معناها ويبين قيمتها في اصول التفسير وأساليبه . على الرغم من افاضته في الشرح والتعليق ،بل الاستطراد ، بما هو معروف عنه غير خاف على من تصفح كتابه . وانما تعداها الى ما بعدها من كلام في النص الذي أوردناه آنفاً ليشرح معنى قول الامام : « ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله » (٣) .

---

(١) ابن عطية : مقدمة المحرر الوجيز ص ٢٦٢ ، وانظر القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ٣٥/١ .

(٢) نهج البلاغة ٢٣/٢ من شرح محمد عبده .

(٣) ابن أبي الحديد : شرح منهج البلاغة ٢٩٤/٨ .

ولم يكن موقف الشيخ محمد عبده مختلفاً عن سلفه في هذا المجال ، اذ أمرَّ التفسير على هذه العبارة دون أن يبين المراد منها (١) .

وأما الجانب العملي ـ التطبيقي ـ فيمكن أن نتبينه فيما أثر عنه من وجوه في تفسير الآي . فهو يتلو ـ على سبيل المثال ـ الاية الكريمة : «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ثم يذكر انها نزلت في النبي ابراهيم عليه السلام وأصحابه (٢) . وهذا يعني انه فسر لفظة «ظلم» الواردة فيها بالشرك ، وطريقه الى هذا التفسير يحتمل أمرين :

أحدهما :

أن يكون قد أخذ ذلك عن النبي (ص) في جملة من أخذه عنه من أصحابه اذ بينا سالفاً ان النبي (ص) كان قد فسر هذه اللفظة بهذا التفسير .

والآخر :

أن يكون قد لحظ السياق ، فأعانه ذلك على عد الاية متحدثة عن النبي ابراهيم وأصحابة ؛ لأن هذه الاية قد وردت في سياق قصة ابراهيم وتنديده بالشرك والأوثان ، وقد اكتنفها من طرفيها ـ في السياق ـ الحديث عن ذلك ، وهو قوله تعالى : « وكيف أخاف ما أشركتهم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » (٣) .

والاحتمال الثاني الذي بيناه أقوى ، وخاصه أن النزول في قوله : نزلت في ابراهيم وأصحابه يراد به المعنى ولا يراد به السبب ، لأن القدامى اذا قالوا: «نزلت هذه الآية في كذا»، فانهم يريدون السبب تارة ويريدون أخرى

(١) محمد عبده : شرح نهج البلاغة ٢/٢٣ .
(٢) ابن حجر : فتح الباري ٧/٢٠٥ .
(٣) الانعام : ٨١ ـ ٨٣ .

انه داخل في الاية وان لم يكن السبب ، كما تقول : عني بهذه الآية كذا (١) . فالمراد بالنزول في كلام الامام إذاً هو أن ابراهيم عليه السلام وصحبه داخلون في حكم هذه الاية، فيشملهم ضمان الأمن لهم من عقاب الله ، والاهتداء. ولهذا أوردها البخاري في قصة ابراهيم من كتاب أحاديث الانبياء .

* * *

فاذا انتقلنا الى المأثور في التفسير عن عبد الله بن عباس ، ألفيناه كذلك مشتملا على نماذج من هذا في التفسير . فابن عباس يفسر القرآن في مواضع كثيرة بالقرآن،ولذلك يعد فيالطبعة الاولى من المدرسة القرآنية، أعني المدرسة التي تفسر القرآن بالقرآن . من ذلك تفسيره لقوله عزّ وجل : «ربنا امتّنا اثنتين وأحيتنا اثنتين فهل الى مرد من سبيل » (٢)، اذ يقول : «كنتم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه احياءة ، ثم يميتكم فترجعون الى القبور فهذه ميتة اخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه احياءة فهما ميتتان وحياتان ، فهو كقوله : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً واحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » (٣) .

وقال في تفسير الاية الثانية — فيما رواه عنه سفيان الثورى — : « هي مثل الاية التي في اول المؤمن : «ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » (٤) .

فهو كما ترى جعل الاية الثانية التي استشهد بها مفسرة للاولى ، ثمّ عكس ذلك في موضع آخر ، فجعل الاولى مفسرة للثانية .

ومعروف أن ابن عباس كان يستنبط معاني القرآن باجتهاده ، فضلاً عما كان يورده من المأثور ، وقد دعا له النبي (ص) أن يعمله الله التأويل ويفقهه في الدين .

---

(١) ابن تيمية : مقدمة في اصول التفسير ص ٤٨

(٢) فاطر : ١١

(٣) الطبري : جامع البيان ٤١٩/١ من الطبقة المحققة .

(٤) تفسير سفيان الثورى ص ٣ .

(٣)

في عهد التابعين وتابعيهم

نشطت حركة التفسير في عهد التابعين نشاطاً ملحوظاً ونبغ في هذه الفترة مفسرون كثيرون ، أشهرهم مجاهدين جبر المكي (ت١٠٤هـ) ، الذي يعد خير تلميذ لابن عباس والذي قال عنه سفيان الثوري : «اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به (١). واذا رجعنا الى المأثور عنه في تفسير القرآن بالقرآن، ألفيناه في رواية الحارث المحاسبي بسنده عن ابن جريج عنه ، يفسّر قوله تعالى : «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني » (٢) ، بأنه : «يصدّق بعضه بعضاً ، ويقول : القرآن كله مثاني »(٣) ، وهذا يشعر أنه يرى القرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويعضد بعضه بعضاً في معانيه ، وأنه كل لايتجزأ ، أو كما قال الزجّاج : كالسورة الواحدة .

فمجاهد إذاً يجد أن تفسير القرآن بالقرآن نص في القرآن ، ولذلك يتخذه أسلوباً من أساليبه في التفسير ، على الرغم من أن جُل ما كان يذكره من وجوه التأويل مأخوذ عن ابن عباس ، وما تبقى مسموع من غيره أو من رأيه هو وفهمه للآى .

ومن الناحية العملية ، نراه يفسر قوله تعالى : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » فيقول :«لم تكونوا شيئاً حين خلقكم، يميتكم الموتة الحق ، ثم يحييكم . ثم يقول : « وقوله :أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين مثلها » (٤) .

ومن التابعين الذين أخذ عنهم التفسير الحسن البصري (ت١١٠هـ) ، فنراه في تفسيره لقوله تعالى : «الله نزل أحسن الكتاب متشابها مثاني » ، يقول في رواية الحارث المحاسبي بسنده أيضاً عنه : « مثاني : ثنّى الله فيه القضاء ،

(١) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٣ .
(٢) الزمـــر : ٢٣ .
(٣) المحاسبي : فهم القرآن ص ٢٧٨ .
(٤) الطبري : جامع البيان ١٩/١ .

تكون السورة فيها الاية ، وفي السورة الاخرى آية مثلها » (١) ، فهذا يشعر أن الاية التي تنزل في حكم معين لها نظير بنفس الحكم يعضدها في سورة أخرى . وهل هذا الا التنويه بتفسير القرآن بالقرآن و الالماع اليه ؟.

فاذا كان مجاهد يرى لفظه «مثاني» نصا في أن القرآن يفسر بعضه بعضاً — كما بينا سالفاً — ويعضد بعضه في معانيه بعضاً ، فان الحسن البصري يرى ذلك أيضاً ، اذ تُثَنّى الاحكام الشرعية التي جاء بها الكتاب المبين ما بين سورة وأخرى .

وكان الحسن يفسر المُعَقِّبات (٢) في قوله تعالى : «له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» (٣) بالحفظة الذين يحفظون عمل العبد ويقول : هم «أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر» ثم يقول : « وهو معنى قوله : «ان قرآن الفجر كان مشهوداً » . فجعل المعقبات في الآية الاولى مفسرة للذين يشهدون الصلاة ومبينة لهم . أو بعبارة اخرى: للذين يحضرونها وهم الملائكة الاربعة الذين ذكرهم .

ونما التفسير بالقرآن في ظل أهل البيت نمواً يانعاً ، فقد كانوا من بناة المدرسة القرآنية التي تتخذ النص القرآني أساساً هاماً في التفسير . وقد رويت عنهم روايات كثيرة في وجوه القرآن وتأويل آياته ، منها ما يعتمد أسلوب التفسير بالقرآن .

وقد تقدم التنويه بدور الامام علي في تأصيل هذا الاسلوب والتنبيه عليه، ونريد أن نبين هنا جهود أئمة آخرين من أهل البيت في هذا المجال الحيوي من التفسير.

---

(١) المحاسبي : فهم القرآن ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .
(٢) الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ١٣/١٥ .
(٣) الرعد : ١١ .

من ذلك ما روى عن أبي عبد الله جعفر الصادق (١) (ت ١٤٨ هـ) أنه فسرّ « يعصرون » في آية يوسف : « فيه يغاث الناس وفيه يعصرون»، ، بـ « يمطرون » واحتج له بمارود في آية النبأ (٢)، فقال لمخاطبه : « أما سمعت قوله : » وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجا» . ففسر القرآن بالقرآن. وفي الرواية عن أبيه الامام محمد الباقر (٣) (ت ١١٣ هـ) ، في طبيعة السجود في قوله تعالى : « وخرّوا له سُجّداً » (٤) ،روى عنه أنه كان يذهب إلى أنه سجود ليوسف « اعظاما له وشكراً لله»، أو قل : ان هذا السجود جمع بين سجود الاحترام والاعظام المتعارف عليه لدى أهل مصر اذ ذاك، وبين سجود الشكر لله على اجتماع شمل الاسرة بعد تشتت. واستدل له بما ورد في الآية بعد ذلك مباشرة على لسان يوسف : « يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً » (٥) .

وهذا الوجه أشبه بالسياق، وبما ورد في اول قصة يوسف، وهو قوله تعالى : « يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » . فبين في اول القصة أنه رآهم ساجدين له، ثم بين في آخرها عند سجود أبويه واخوته أن ذلك تأويل رؤياه قد صارت حقيقة وواقعاً بعد أن كانت حلماً.

ولا نكاد نمضي الى عهد اتباع التابعين ، حتى نجد انفسنا وجهاً الى وجه مع ضرب من تفسير القرآن بالقرآن يمارسه جماعة من أهل البيت في حياتهم العملية العلمية .

فعندما ابتُلي المسلمون بشيء من الأوهام المتعلقة بالذات الالهية ، كان لابد لأئمة المسلمين ان يكشفوا عن الحقيقة ، ويزيلوا تلك الاوهام بما يليق بصفات

---

(١) تفسير العياشي ١٨٠/٢ .
(٢) في الآية ١٤ .
(٣) تفسير العياشي ١٩٧/٢ .
(٤) يوسف : ١٠٠
(٥) يوسف : ١٠١ .

الله عزّ وجل ، او قُل : أن يَذبّوا عن الدين في أسمى وأهم مما يتعلق به وهو الايمان بالله وتوحيده .

وكانَ لأهل البيت في هذا المضمار دورهم الفعال ؛ اذ كانوا إما ان يزيلوا شبهة ووهماً تختلج بهما نفس مسلم ، او يردوا تهمة باطلة يتلجلج بها لسان زنديق .

وهذا ما حدث حين ذكر ابو قرّة المحدّث للامام علي بن موسى الرضا (ت٢٠٤هـ) انهم رُوُوا ان الله تعالى خص موسى بالكلام ومحمداً (ص) بالرؤية ، وان قوله تعالى : «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى» ، دال على ذلك ، فأجابه الرضا بما يدفع هذا الظن ، واحتج له بقوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى» ، وبين أن آيات الله غير الله (١) . وإذاً فلَم يرَ النبي (ص) ربه في معراجه ، بل رأى جبريل بصورته الملكيّة .

القسم الثاني

تطوره

بعد ان أوضحنا — فيما مر — نشأة أسلوب التفسير بالقرآن ، ابتداء من عصر النبي وأصحابه وانتهاء بعصر التابعين وأهل البيت ، لابد لنا ان ننتقل الى الخطوة التالية في هذه الدراسة ، وهي بيان تطور هذا الاسلوب بعد النشأة (٢) . والحق ان بدايات هذا التطور قد تجلت في بعض ما أسلفناه عند الحديث عن النشأة ، ذلك ان طرفا من هذا الاسلوب استخدم كما بينا لاغراض فكرية ، كالذي رأيناه في دفع الامام أبي الحسن الرضا لظنة رؤية النبي (ص) ربه عنه معراجه ، واحتجاجه لذلك بسياق الاية التي توهمّها السائل دالة على ما ذهب اليه من الرؤية .

---

(١) المرتضى : أمالي المرتضى ١/١٤٩ — ١٥٠ .

(٢) أود أن أبين أن المراحل التي أتناولها بهذه الدراسة ليست زمانية صرفاً ، بل هي تطورية تتداخل إحداهما في الأخرى ، غير أنها على وجه الإجمال حلقات في سلسلة حياة هذا الموضوع.

وهذه البدايات لاشك مهدت السبيل بعد ذلك للمتكلمين – وخاصة الامامية منهم – لأن يحتجوا بالقرآن للقرآن في جدلهم الاعتقادي تجاه الفرق الاسلامية الاخرى .

على ان ارهاصات هذا التطور بصورته اللغوية الواضحة تتجلى في المنهج الذي سلكه مفسر شهير من اتباع التابعين هو مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ) الذي خلّد كتاباً في هذا الموضوع ينم عن استقراء دقيق مستوعب ، حتى اننا نستطيع القول إنه من اوائل من وظفوا اسلوب تفسير القرآن بالقرآن على نطاق واسع وبمنهجية أصيلة متميزة ، على الرغم من عدد من الملاحظ التي يأخذها عليه الدارس لكتابه الذي ضمنه هذا الاسلوب بوضوح ، وهو كتاب : « الاشباه والنظائر في القرآن الكريم » .

(١)

الاشباه والنظائر لمقاتل :

الأشباه والنظائر : فرع من فروع التفسير ، فالاشباه – أو الوجوه – هي الالفاظ المشتركة التي تستعمل في معان متعددة كلفظة العين ، والنظائر كالالفاظ المتواطئة التي تستعمل بمعنى واحد مثل : جواد وكريم (١) . وأول ما يلقانا من مصنف مقاتل هذا ، تفسير (الهُدى) في القرآن الكريم ، وقد جعله على سبعة عشر وجهاً ، لكل وجه منها معنى معيّن يبينه في ابتداء كلامه على ذلك الوجه ، ويمثل له بعد ذلك بآية قرآنية في سورة من السور ، ويذكر عقبها ما يناظرها ، في نفس السورة أو في السور الاخرى ، من الآى .

فنراه مثلا في الوجه الخامس من وجوه تصرف معاني (الهدى) يقول : «والوجه الخامس : « هُدى » يعني معرفة ، فذلك قوله في النمل : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون» ، نظيرها في الأنبياء : « وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون » ، يعني يعرفون الطرق. . . »

(١) ابن تيمية : الاكليل في متشابه التنزيل ص٩ ضمن (رسائل ابن تيمية)
وشحاتة : الدكتور عبد الله : مقدمة الاشباه والنظائر لمقاتل ص ٨٤ .

فأنت ترى أنه مثل بآية النحل اولا للوجه الخامس للهدى، وهو (المعرفة) ثم استشهد لها بآية الانبياء من بعد.

ونراه في الوجه السادس عشر يبين أن الهدى يرد في القرآن بمعنى « إلهام البهائم » ، ويمثل له بقوله في سورة طه : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، ويقول: « يعني من الدواب » .ويفسر « خلقه » بـ « صورته » التي تصلح له، كما يفسر « ثم هدى » بقوله : « يعني ثم ألهمه كيف يأتي معيشته ومرعاه » ، ويستدل لهذا المعنى بما ورد في سورة الأعلى وهو قوله عز وجل : « والذي قدّر فهدى » ، ويقول : « يعني قدّر خلق الذكر والانثى، فهدى : يعني ألهم الذكر كيف يأتيها وتأتيه (١) » .

وهذا الاستدلال وان كان صحيحاً، إلا أن تفسير الهداية في سورة الأعلى باهتداء الذكر إلى انثاه والعكس، هو في الواقع تخصيص من غير مخصّص، وهو لا يلائم دلالة الهداية في سورة طه؛ لانها ذات دلالة عامة مطلقة في تلك السورة، وكذلك هي في سورة الأعلى، فقد قال تعالى : « هَدَى » ولم يذكر أنه هداه لشيء معين محدود. وذلك ملائم للحقيقة ، فإلهام الحيوان لا يتعين بشيء دون شيء، بل هو الهام عام يتناول أشياء كثيرة متنوعة كما هو ملاحظ .

(٢)

في الملاحظة النحوية واللغوية :

ويأخذ هذا التطور مجراه في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث، فاذا بنا أمام تطور جديد لهذا الاسلوب ، وأمام صورة تطبيقية جديدة له ، تتجلى في الافادة منه في بيان الملاحظ والتوجيهات النحوية واللغوية. وأول ما يلقانا في هذا التطور الهام في الحياة اللغوية بعامة، كتاب له قيمته العلمية وشهرته الواسعة، الا وهو كتاب « معاني القرآن » لابي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧) ،وهو الكتاب الذي نال عناية الدارسين قديماً وحديثاً.

(١) مقاتل : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ٩٥ .

معاني القرآن للفراء :

مع ان اسلوب تفسير القرآن بالقرآن كان يبدو مستقلا عن مسائل اللغة والنحو في التفاسير والمصنفات القرآنية التي ظهرت في القرن الثاني بعامة، الا ان من النحاة من توسعوا في الافادة من هذا الاسلوب ونوعوا استخدامه وخاصة الفراء، الذي أولاه أهمية في تبيين وجوه النحو واللغة.

فنراه مثلا في وقوفه عند قوله تعالى : « وشهد شاهد من أهلها » (٢) يذكر الاقوال المختلفة في هوية هذا الشاهد (١) ،ثم يقول : « ولو كان الكلام « أَنْ كان قميصه » لصلُح ؛ لأن الشهادة تستقبل بـ (أَنْ) ، ولا تكتفي بالجزاء، — الشرط — فاذا اكتفت فانما ذهب بالشهادة إلى معنى القول ، كأنه قال : وقال قائل من أهلها، كما قال : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » ،فذهب بالوصية إلى القول » (٣) . ومراده : أن ورود الشرط بعد الشهادة يتطلب في الاستعمال اللغوي دخول (أَنْ) المفسرة بعدها عليه، أو بعبارة أخرى : دخول (أنْ) هذه على (إنْ) الشرطية. فان لم تدخل عليها، فالشهادة هنا بمعنى القول، لانها لا تقتضي على هذا التأويل دخول (أن) على الشرط. واستدل على ذلك كما هو ظاهر بآية أخرى استعملت فيها لفظة قرآنية على هذا الحد في الاستعمال، وهي (يوصيكم) فكان معناها منصرفاً إلى القول، مثل (شهد) سواء بسواء. فأنت ترى أن الفراء أفاد من تفسير القرآن بالقرآن في تأويلاته المتعلقة بالنحو واللغة.

وعندما يعرب لفظة « أضغاث » في قوله عزّ وجل : « قالوا أضغاث أحلام » (٤) يذكر أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هي) ،ثم يستدل لها

---

(١) يوسف : (٢٦) .

(٢) يذكر عن سعيد بن جبير أنه صبي ، وعن مجاهد أنه رجل ، وفي رواية أخرى عن مجاهد أن المراد بالشاهد : حاكم من أهلها : معاني القرآن ٢/٤١ .

(٣) الفراء : معاني القرآن ٢/٤١ .

(٤) يوسف : ٤٤ .

بما ورد في سورة النحل، فيقول : « وهو كقوله : « ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين » ،كفروا فقالوا : لم ينزل شيئا إنما هي اساطير الاولين»(١)

ونراه يستدل للقراءة التي بالرفع في آية ابراهيم بما ورد في آية التوبة . (٢) وهو إذ يفعل ذلك فانما يسلك ضربا من الاستدلال للقرآن بالقرآن، أو قل ضرباً لتفسير القرآن بالقرآن وهي وجهة من التطور في استعمال هذا الاسلوب جديدة وهامة في الحياة اللغوية القرآنية .

معاني القرآن واعرابه للزجاج

ولا نكاد نتجاوز القرن الثالث بقليل حتى نلتقي بعالم جليل من علماء القرآن ذلكم هو ابو اسحق ابراهيم بن السَري الزجّاج (ت ٣١١ هـ) ، الذي صنف كتاباً قيما في الدراسات اللغوية القرآنية ، هو « معاني القرآن واعرابه ». والكتاب يمثل مرحلة متقدمة من النضج في تأليف هذا النمط من كتب التفسير ، أعني الكتب التي يطلق عليها مصنفوها اسم « معاني القرآن » أو « معاني القرآن واعرابه » ،على خلاف جزئي في التسمية .

ومع ان الزجاج اعتمد في بيان معاني القرآن على الشرح اللغوي قبل كل شيء، وأولاه مزيداً من الاهتمام، واستدل له بالمأثور من كلام العرب شعراً ونثراً. الا انه إلى جانب ذلك لم يعدم الاستدلال على معاني الآى بآى أخرى، شأنه في هذا شأن من سبقه من المفسّرين.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الجليل عبده (٣) شلبي محقق الكتاب :

« ويعني الزجاج بتفسير القرآن بالقرآن، مستشهدا على المعنى الذي يشرحه في آية ما بذكر آية أخرى، قد تكون أصرح وأبين مما تدل عليه الآية التي

---

(١) معاني القرآن ٢/٤٦ – ٤٧ .

(٢) الفراء : معاني القرآن ٢/٦٧ .

(٣) مقدمة كتاب (معاني القرآن وإعرابه) للزجاج ص (هـ) .

يشرحها. وهو في هذا الصدد قوي بارع، واستشهاداته قوية في دلالتها على ما يريد ».

والزجاج يسلك هذا المنهج والاسلوب في ملاحظه اللغوية النحوية حين يعرض لتفسير الآى، على نحو وقوفه على (الم . ذلك الكتاب) (١)، في سورة البقرة، اذ بين ان المراد بـ « ذلك » الاشارة الى شيء « قد جرى ذكره، فان شئت قلت فيه « هذا »، وان شئت قلت فيه « ذلك »، كقولك: انفقت ثلاثة وثلاثة فذلك ستة . وان شئت قلت هذا ستة »، ثم نظر له بما ورد في سورة النازعات في شأن فرعون، فقال : « كقوله عز وجل : « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأُولى، ثم قال بعد ذلك : « ان في ذلك لعبرة لمن يخشى »، كما نظّر له بما ورد في سورة الانبياء، وهو قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون » ثم قوله : « ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين »، ونظّر له فوق ذلك بشاهد ثالث هو قوله تعالى في سورة الرعد : « المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ». فأكد في هذه الشواهد القرآنية المتضافرة ما ذهب اليه في آية البقرة من أن ما جرى الحديث عنه وتصرَّم الكلام عليه، يجوز ان يُعبّر عنه باسم الاشارة الدال على ما هو بعيد أو ما هو قريب.

أمالي المرتضى

حتى اذا جزنا القرن الثالث إلى الرابع وجدنا بين أيدينا كتاباً قيماً للشريف علي بن الحسين الموسوي الملقب بـ »المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، جمع فيه بين دراسة الأدب ونقده وبين اللغة والتفسير، وقد رتبه على شكل مجالس، القاها في طريقه إلى الحج سنة ٣٩٥هـ. فكان لهذه المجالس شهرة واسعة في الاوساط

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٠ عند تفسير الآيتين ١/ – ٢ من البقرة .

(٢) البقرة : ٦٤ .

العلمية والأدبية، وقد جمعها في كتاب سماه « الغرر والدرر » ثم عرفت بين الناس بالامالي.

لقد ضمت الأمالي في جملة ما ضمت من مواد تفسير القرآن بالقرآن، وقد وظفه المرتضى ببراعة في ملاحظه اللغوية وتوجيهاته النحوية، مستعيناً في ذلك بثقافته اللغوية الواسعة وبقدرته على الاستشهاد بالآثار الأدبية وخاصة الشعر العربي القديم. من ذلك أنه احتمل لقوله تعالى في اليهود : « غُلّتْ أيديهم » (١) ثلاثة وجوه منها :

« أن يكون معنى الكلام : وقالت اليهود يد الله مغلولة فغُلّت أيديهم، أو وغُلّت أيديهم، وأضمر تعالى الفاء والواو؛ لأن كلامهم تمّ وأستؤنف بعده كلام آخر. ومن عادة العرب أن تحذف فيما جرى مجرى هذا الموضع». واستدل على هذا التوجيه اللغوي للآية بقوله عزّ وجل في موضع آخر : «واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزوا»(٢) وقال : « أراد : فقالوا اتتخذنا هزوا » ،فأضمر الفاء ، لتمام كلام موسى عليه السلام. ثم استدل بعد ذلك بدليل آخر، ليعضد به ما قدمه من الدليل القرآني وهو قول الشاعر :

لمّا رأيتُ نَبَطاً أنصارا شَمّرتُ عن ركبتيَ الإزارا
كنتُ لها من النصارى جارا

وقرّر الكلام :« وكنت » ، وبيّن ان الشاعر قد اضمر الواو (٣) .

وبذلك زاوج المرتضى بين الشاهد القرآني والشاهد الشعري في التأويل المبني على الملاحظ اللغوية والتوجيهات النحوية. وهذا من منهجه المتميز الذي عني به في أماليه، وهو صورة للحياة اللغوية المزدهرة، التي شهدها

(١) نفسها : ٦٧ .
(٢) البقرة : ٦٧
(٣) أمالي المرتضى ٢/٤ – ٥ .

القرن الرابع، بثروته اللغوية المتنوعة وعطائه العريض في أكثر فنون المعرفة. ويتخذ المرتضى من سياق الآية قرينة لغوية لتعيين دلالة لفظة ما فيها دون الدلالة الاخرى. فهو يذكر أن قوله تعالى في وصف البقرة : « لا فارض ولا بِكر عوان بين ذلك » (١) فيه قولان : أحدهما المسنة، والاخر العظيمة الضخمة. تقول العرب : غرب فارض، أي : ضخم، ويقال : لحية فارضة، اذا كانت عظيمة. ثم قال : « والأشبه بالكلام أن يكون المراد : المسنة». فالتفت في قوله « الاشبه » إلى سياق الآية نفسها؛ اذ ذُكرت فيها « البِكر » وهي الصغيرة، فجاءت المسنة على وجه التقابل لها، فكانت مفسرَّة بها. ولهذا قال بعد ذلك : « فأما البكر فهي الصغيرة التي لم تلد، فكأنه تعالى قال : تكون غير مُسِنة ولا صغيرة » (٢) ، يريد أنها وسط بين النوعين.

مفردات الفاظ القرآن للراغب :

في نهاية القرن الخامس صنف أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (ت ٥٠٣ هـ) كتاباً قيماً رائداً في تفسير ألفاظ القرآن عرف بـ « مفردات ألفاظ القرآن » . أورد فيه معاني الألفاظ القرآنية في آي الكتاب المبين ، مدفوعاً بحقيقة لم تغب عن باله ، وهي أن أول مايُحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن ، العلوم اللفظية . ومن العلوم اللفظية تحقيق الالفاظ المفردة ، وأن تحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن ، من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرس معانيه (٣) فهذا مايطالعنا به في مقدمة كتابه ، وهو مانقله عنه الزركشي (٤) دون أن يعزوه اليه .

ويقوم منهج الراغب بعامة في كتابه على ايراد دلالة اللفظة القرآنية في اللغة، ملاحظاً تطورها إلى حد معقول خلال العصور ، على مالاحظ الخولي (٥)،

---

(١) البقرة : ٦٩ .
(٢) أمالي المرتضى ٣٩/٢ .
(٣) الراغب : مقدمة مفردات الفاظ : القرآن ص (ن) .
(٤) البرهان في علوم القرآن ١٧٣/٢ .
(٥) مناهج تجديد : ص ٣١٣ — ٣١٤.

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

وينتقل الرازي بعد بيان هذه الفائدة العقيدية المستقاة من قوله تعالى : « مالك يوم الدين » ، إلى فائدة أخرى متعلقة بنفس الآية ، وهي أن مَن سلط الظالم على المظلوم دون أن ينتقم منه ، فذلك إما عاجز أو جاهل أو راض بذلك الظلم. وهذه الصفات الثلاث محال على الله ، فوجب أن ينتقم للمظلومين ، وحيث أن هذا قد لايحصل في دار الدنيا ، فقد وجب أن يحصل في الدار الآخرة ، وذلك هو المراد بقوله « مالك يوم الدين » وبقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . (١) .

فجعل هذه الآية الثانية موضحة ومفسرّة للأولى في حصول الجزاء ووقوعه في الآخرة ، ونراه يلحظ السياق في تفسير قوله تعالى : » غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (٢) . وبذلك وظف الرازي أسلوب التفسير بالقرآن في استنباط فوائده الجمة من سورة الفاتحة التي صرح في أول تفسيره لها أنها يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة ، مما جعل كثيراً من الناس تستغرب ذلك وتراه مبالغة منه ، ولهذا عرّض بهم ونسبهم إلى الحسد والجهل(٣).

أنوار التنزيل للبيضاوى :

اذا انتقلنا إلى ناصر الدين عبد اله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) ، ألفيناه في تفسيره : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، يعنى بالسائل العقيدية والكلامية التي عرَض لها مفسرو المعتزلة وأهل السنة عند بيانهم معاني القرآن ، ونجده يعنى بالتفسير بالقرآن في ايراده أدلة الفريقين ، التي يعرضها غالباً بأمانة وموضوعية. فآية البقرة التي وردت في مدح المؤمنين وَصفَتهم بجملة صفات ، منها انهم ينفقون مما رزقهم الله ، وذلك بقوله تعالى :«ومما رزقناهم ينفقون » (٤) ، غير أن متكلمي المفسرين من الفريقين اختلفوا في ماهية الرزق ، أيكون حلالاً

(١) الرازى : التفسير الكبير ١/٢٣٦ .
(٢) الفاتحة : ٧ .
(٣) الرازى : التفسير الكبير ١/٤.
(٤) البقرة : ٣ .

فحسب ، أم يجوز أن يكون حراماً ويسمى رزقاً ؟! والبيضاوي يقف هنا موقف الباحث الموضوعي ، فيعرض أدلة الفريقين من القرآن مع مايعرضه من الأدلة الأخرى فيقول : ان المعتزلة لما لم تُجَوِّز على الله أن يمكِّن العبد من الحرام ؛ لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه ، قالوا : الحرام ليس برزق واحتجوا لذلك باسناد الله الرزقَ في هذه الآية إلى نفسه اشعاراً انهم ينفقون الحلال المطلق ؛ لان انفاق الحرام لايوجب المدح ، والآية مشعرة بمدح المؤمنين بلا خلاف . وأيضاً فإنه تعالى ذم المشركين على تحريم مارزقهم الله تعالى بقوله «قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا »(١) ثم ينتقل بعد ذلك إلى أدلة أصحابه من أهل السنة ، فبين أنهم ذهبوا إلى أن اسناد الرزق إلى الله في الآية للتعظيم والتحريض على الانفاق ، وتمسكوا لشمول الرزق للحلال والحرام بقوله عزّ وجل : « وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها » (٢) في جملة ماتمسكوا به من أدلة .

وعند هذا العرض يقف البيضاوى دون أن يعمد إلى ترجيح أحد الوجهين على الاخر . ونراه في تفسيره لقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (٣) ، يذكر انه تعالى اسند الختم اليه كما اسند الطبع في قوله : « طبع الله على قلوبهم » (٤) والاغفال في قوله : ولاتُطِعْ « مَن اغفلنا قلبه عن ذكرنا » (٥) والاقساء بقوله : « وجعلنا قلوبهم قاسية » (٦) ؛ وذلك لأن المخلوقات بأسرها مستندة اليه تعالى واقعة تحت قدرته. ولما كانت هذه هذه الصفات ، من الختم والطبع والاغفال والقسوة ، مسببة عما اقترفوه اسندت اليه تعالى . ثم يستدل لما ذهب اليه من أن هذه الصفات مسببة عن

---

(١) هود : ٦٠.

(٢) الدامغاني : اصلاح الوجوه والنظائر ، بتحقيق عبد العزيز سيد الاهل دار العلم للملايين بيروت ط ١ ، ١٩٧٠.

(٣) البقرة : ٧.

(٤) النحل : ١٠٨ ، محمد : ١٦ .

(٥) الكهف : ٢٨.

(٦) المائدة : ١٣ .

اعمالهم الردئية بما ورد في قوله عز وجل : « بل طبع الله عليها بكفرهم»(١) وقوله : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم » (٢) . ففسر القرآن بالقرآن

تفسير الجلالين :

في القرن التاسع صنف الجلالان : محمد بن أحمد المحلي (ت ٨٦٤ هـ) وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) تفسيرهما الشهير المعروف بـ (التفسير الجلالين) ، وسلكا في تحريره في جملة ماسلكا — (٣) تفسير الآى بعضها ببعض ، وان لم يكن ذلك ظاهرا ظهوره في التفاسير والمصنفات القرآنية التي سبقتها ، وذلك لاتسام هذا التفسير بالايجاز . في تفسير قوله تعالى: « فتلقى ادم من ربه كلمات« (٤) يذكر السيوطي ان الله تعالى ألهَمَ آدم تلك الكلمات ، ثم بين ماهيتها استنادا إلى آية اخرى وهي : « ربنا ظلمنا أنفسنا »، الاية (٥) مشيرا إلى ماورد في سورة الاعراف (٦) على لسان آدم وحواء وهو قوله تعالى :«قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ففسر القرآن بالقرآن .

وينظر المحلي إلى السياق ويتخذه قرينة على تفصيل ماتقدمه من أجمال ففي تفسير قوله تعالى :«الملك يؤمئذ لله يحكم بينهم» (٧) يقول : « الملك يؤمئذ اى يوم القيامة (لله) وحده ... (يحكم بينهم)بين المؤمنين والكافرين بما بيّن : « فالذين امنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم» فضلا من الله « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين » شديد بسبب كفرهم»(٨)

---

(١) النساء : ١٥٥ .
(٢) المنافقون : ٣ .
(٣) للا طلا ع على منهج الجلالين في التفسير ينظر بحثنا بجزأيه في مجلة اداب الرافدين العدد الخامس والثامن .
(٤) البقرة : ٣٧ .
(٥) تفسير الجلا لين ص ١٠
(٦) آية : ٢ .
(٧) الحج : ٥٦
(٨) تفسير الجلا لين ص ٣٠٠

ومعنى هذا ان تبيين حال المؤمنين تم حال الكافرين جاء تفسيرا وتفصيلا للإخبار عن حكم الله بينهم .

وبذا تبين انه على الرغم من عد تفسير الجلالين من التفاسير التي تعني بالرأي والعقل الا أنه لم يعدم — على ايجازه — لمحات هنا وهناك من هذه الظاهرة الاسلوبية الجديرة بالعناية والاعجاب : ظاهرة تفسير القرآن بالقرآن، يرد آية إلى آية او عبارة إلى عبارة او لفظة إلى اخرى ، اما بملحظ السياق او بالنظر إلى الاى في مواضعها المتفرقة من القرآن ، او نحو ذلك من صور ليس محل تفصيلها هنا ، بل نأمل ذلك في بحث اخر يتناولها بالدراسة المبنية على الاستقراء المتكامل الدقيق . ونرجو ان نوفق لهذا البحث في وقت قريب بعد ان تتم رحلة هذا التطور في العصر الحديث ، فندرس تفسير القرآن بالقرآن في هذه الفترة من نهضتنا ليكون عملنا في فصوله الثلاثة ، اسهاما في البحث الجاد المبتكر في تراثنا القرآني الذي يقع التفسير في ذروته ، ويمثل أعلى درجاته .

المصادر والمراجع

١. ابن ابي الحديد : عز الدين ابوحامد بن هبة الله: شرح نهج البلاغة ، بتحقيق أبي الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الاولى، القاهرة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م.

٢. البخارى : ابو عبدالله محمد بن اسماعيل : صحيح البخارى ، بشرح ابن حجر العسقلاني ، مطبعة البابي الحلبي — القاهرة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩م

٣. البغدادى : اسماعيل باشا : هدية العارفين وآثار المصنفين، بالاوفست عن طبعة استانبول سنة ١٩٥١ ، طهران ، الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ= ١٩٦٧ م .

٤. البيضاوى : ناصر الدين عبدالله بن عمر ، أنوار التنزيل واسرار التأويل، مطبعة مصطفى محمد — القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .

٥. التنوخي : مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، بتحقيق الدكتور عبدالله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب — القاهرة ١٣٩٥ هـ =١٩٧٤م .

٦. ابن تيمية : تقي الدين احمد بن عبدالحليم : الاكليل في متشابه التنزيل، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ، مطبعة محمد علي صبيح — القاهرة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م .

٧. ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور، الطبعة الثانية ، دار القرآن الكريم — الكويت ١٩٧٢ م.

٨. الثورى : أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق ، تفسير سفيان الثورى بتصحيح امتياز علي عرشي ، مكتبة رضاء ، الهند ١٣٨٥ هـ= ١٩٦٥م .

٩. ابن الجزرى : ابو الخير محمد بن محمد : تقريب النشر في القراءات العشر ، بتحقيق ابراهيم عطوة الطبعة الاولى، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م .

١٠. الجلالان : محمد بن احمدالمحلي ، وعبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ، تفسير الجلالين دار الشعب — القاهرة ١٩٧٠ .
١١. الجويني : الدكتور مصطفى الصاوى : مناهج في التفسير ، شركة الاسكندرية للطباعة الاسكندرية ١٩٧١ م ، دار الشعب ١٩٧٥ .
١٢. الخولي : أمين : مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة — القاهرة ١٩٦١.
١٣. الدامغاني : الحسين بن محمد : إصلاح الوجوه والنظائر ، بتحقيق عبد العزيز سيد الاهلي ، الطبعة الاولى ، دار العلم للملايين — بيروت ١٩٧٠ .
١٤. الرازى : فخر الدين محمد بن عمر ، التفسير الكبير ، المطبعة البهية مصر (لم تذكر سنة الطبع).
١٥ . الرضي : محمد بن الحسين الموسوى : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، دار التراث الاسلامي — بيروت (لم تذكر سنة الطبع) .
١٦. الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد : مفردات الفاظ القرآن ، بتحقيق نديم مرعشلي ، مطبعة التقدم العربي — بيروت ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢م .
١٧. الرماني : أبو الحسن علي بن عيسى : النكث في اعجاز القرآن ، ضمن ثلاث سائل في اعجاز القرآن ، بتحقيق الدكتور احمد محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، الطبعة الثانية مطابع دار المعارف — مصر ١٣٨٧ هـ .
١٨. الزجاج : ابو اسحق ابراهيم بن السرى ، معاني القرآن واعرابه ، بتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية القاهرة ١٩٧٣م .
١٩. الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن ، بتحقيق ابي الفضل ابراهيم ، الطبعة الاولى ، دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٣٧٦ هـ .

٢٠. الزمخشري : جار الله محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق التنزيل ، مطبعة البابي القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م .
٢١. الزيدي : الدكتور كاصد ياسر : منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ، مطبوعة بالرونيو — القاهرة ١٩٧٦ م .
٢٢. الطبرسي : ابو علي الفضل بن الحسن ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبعة الثانية ، دار الفكر — بيروت ١٣٨٠ هـ =١٩٦٦ م .
٢٣. الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر ، وطبعة البابي الحلبي الثانية سنة ١٩٥٤ م .
٢٤. الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن، البيان في تفسير القرآن ، المطبعة العلمية — النجف ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م .
٢٥. ابن عطية : عبد الحق بن غالب : مقدمة (المحرر الوجيز) ضمن كتاب : مقدمتان في علوم القرآن ، نشر آرثر جفري ، الطبعة الثانية ، مطبعة الصاوي — القاهرة ١٩٧٢ م .
٢٦. عبد الله محمود شحاته (الدكتور) : التفسير والقرآن — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٣ .
٢٧. العياشي : ابو النضر محمد بن مسعود السمرقندي تفسير العياشي ، بتصحيح وتعليق هاشم الرسولي المحلاتي ، المطبعة العلمية — قم (لم تذكر سنة الطبع) .
٢٨. الفرّاء : أبو زكريا يحيى بن زياد : معاني القرآن ، بتحقيق محمد علي النجار وآخرين ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار الكتب — مصر ١٣٧٤ هـ= ١٩٥٥ م .
٢٩. القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري ، الطبعة الثالثة ، دار الكاتب العربي القاهرة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

٣٠.أبن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم : تأويل مشكل القرآن ،بتحقيق السيد أحمد صقر ، الطبعة الثانية ، دار التراث بالقاهرة ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م
٣١. كولد تسهر : مذاهب التفسير الاسلامي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ١٣٧٤هـ=١٩٥٥ م .
٣٢.المبرد : محمد بن يزيد : ماتفق لفظه واختلف معناه ، باعتناء عبد العزيز الميمني الراجكوتي المطبعة السلفية ، القاهرة – ١٣٥٠ هـ.
٣٣.المحاسبي : أبو عبد الله الحارث بن اسد ، العقل وفهم القرآن .
٣٤.محمد عبده : شرح نهج البلاغة ، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٥.محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم مطابع الشعب – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٦.محمد غنيمي هلال (الدكتور) : الادب المقارن ، الطبعة الثالثة – القاهرة ١٩٦٢
٣٧.المرتضى : علي بن الحسين الموسوي : امالى المرتضى: «الغرر والدرر» ، بتحقيق أبي الفضل ، مطبعة الحلبي – القاهرة ١٩٥٤.
٣٨.المكي : مجاهد بن جبر تفسير مجاهد ، بتحقيق عبد الرحمن الطاهر بن محمد ، مطابع الدوحة الحديثة – قطر (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٩.الهمداني : القاضي عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة ، بتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، الطبعة الاولى ، مطبعة الاستقلال – القاهرة ١٣٨٤ هـ= ١٩٦٥ م.
٤٠.الهمداني : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، ضمن كتاب بهذا العنوان فيه ثلاث رسائل ، بتحقيق فؤاد السيد ، الدار التونسية للنشر – تونس ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٤ م .
٤١.الهمداني : متشابه القرآن ، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور ، مطبعة دار النصر – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .